﴿رَّسُولًا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ١١﴾ [الطلاق: 11]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

كما أنَّ القرآنَ مُذَكِّرٌ؛ فالرَّسول ﷺ مذكِّرٌ أيضًا

بعد أن مدحتِ السّورةُ المؤمنين برجاحةِ العَقْلِ، وذكَّرتهم بنعمةِ إنزال القرآن إليهم؛ ليُنَبِّهَهُم إلى ما هُم عنه غافلونَ؛ ناسَبَ أن تذكِّرهم في هذه الآية بنعمةِ إرسالِ الرَّسول إليهم؛ لأنَّه ﷺ صورةُ سوَر القرآنِ، والعامِلُ بِهِ المُبلِّغُ لَهُ، وقد كان القرآن الكريمُ خُلُقًا لَهُ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُبَيِّنَٰتٖ﴾: (بين) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ بُعدُ الشَّيءِ وانكشافُهُ، يقال: بانَ الشَّيءُ وأبانَ؛ إذا اتَّضَحَ، وانكَشَفَ، وفُلانٌ أبْيَنُ مِنْ فُلانٍ، أيْ: أوْضَحُ كَلامًا مِنْهُ[2]، والبَيِّنَة: الدّلالة الواضحَةُ، عقليَّةً كانت أو محسوسةً، ويقال: آية مُبَيَّنَة اعتبارًا بمَن بيَّنَها، وآية مُبَيِّنَة اعتبارًا بنَفْسِها، وآيات مبيِّنات ومبيَّنات، قال تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ﴾[3]، أيْ: واضحات موضِّحات[4].

2) ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: (ظلم) أصْلانِ صَحيحانِ، أحَدُهُما: خِلافُ الضّياءِ والنّورِ، ومنه: الظُّلْمَةُ، والجَمْعُ: ظُلُماتٌ[5]، والمعنى المحوريُّ: حَجْبُ ما ينبغي، أو ما يُسْتَحق، أي: منعُه أو انتِقاصُهُ، كمَنْع الضَّوء

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 168.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (بين).
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 264.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).

في حالِ الظُّلمة، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، وقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: 257]، وقال أيضًا: ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾، أي: ظلمات المعاصي والحيدَة عن الصِّراط المستقيم(1).

3) ﴿ٱلنُّورِۚ﴾: (نور) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى إضاءَةٍ واضطِرابٍ وقِلَّةِ ثَباتٍ، ومِنْهُ: النّورُ والنّارُ، سُمّيا بِذلِكَ مِنْ طَريقَةِ الإضاءَةِ، ولِأَنَّ ذَلِكَ يَكونُ مُضْطَرِبًا سَريعَ الحَرَكَةِ(2)، والنّور: الضّوءُ المُنْتَشِر الذي يُعينُ على الإبصار، وقد استَعْمَلَهُ القُرآن في قوله تعالى: ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾، بمعنى الإيمانِ عَلى سبيلِ الاستِعارَةِ؛ إذ المعنى: ظلمات المعاصي والحيدَة عن الصِّراط المستقيم إلى نور الطّاعة والتَّجَلّي(3).

4) ﴿أَحۡسَنَ﴾: (حسن) أَصْلٌ واحِدٌ، فالحُسْنُ ضِدُّ القُبْحِ، يُقالُ: رَجُلٌ حَسَنٌ وامْرَأَةٌ حَسْناءُ وحُسّانَةٌ(4)، والحُسْنُ: عبارة عن كلِّ مُبْهِجٍ مرغوبٍ فيه، ومعناه المحوريُّ: نَقاءُ الشَّيء ورِقَّتُه بخُروج الخَشن أو الغليظ الذي يُخالِطُه، فيَشوبُ رِقَّتَه(5)، وقد عَبَّر به القرآنُ الكريمُ في قوله سبحانه: ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ عن التَّعجُّب والتَّعظيم، لِما يُرزَق به المؤمنُ من الثَّوابِ والنَّعيم في الآخرة(6).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبَيِّن الآيةُ الكريمةُ أنَّ مِن نِعَمِ الله تعالى التي توجب على المؤمنينَ شُكْرَه بمزيد تقواهُ نعمةَ إرسالِ رسولِ الله ﷺ إليهم؛ ليَتْلوَ

اتِّباع الرَّسول ﷺ سببُ الهداية في الدُّنيا، وسببُ النَّعيم الذي لا مثيلَ له في الآخرة

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ظلم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نور).
(3) الراغب، مفردات القرآن، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نور).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسن).
(5) الراغب، مفردات القرآن، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حسن).
(6) الزمخشري، الكشاف: 4/ 561.

عليهم آياتِ الله تَعالى التي تكشف لهم طريقَ الحقِّ والهدى، وتأخذ بأيْديهم؛ ليَخرجوا من ظُلُمات الجَهالَةِ إلى نور الإسلام والإيمان، وتَعِدُ الآيةُ مَن آمَنَ بالله تعالى، وعَمِلَ عَمَلًا صالِحًا، وانتَفَع بالنّور الذي أُنزل على الرَّسول ﷺ بأنْ يُدْخِلَهُ اللهُ تعالى جنّاتٍ تجري مِن تحتها الأنهارُ خالدًا فيها، لا يتحوَّل عنها أبدًا، ويُرزقُ فيها رزقًا حسنًا من فضل الله تعالى وإحسانه، ويَنْعَمُ فيها بما شاء من نعيمٍ، لا يحيطُ به وصفٌ، ولا يَحُدُّه حدٌّ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقع ﴿رَّسُولًا﴾ الإعرابيُّ، ودلالتُهُ:

قولُه تعالى: ﴿رَّسُولًا﴾ يجوزُ إعرابُه بدلًا من ﴿ذِكْرًا﴾، أو مفعولًا به لفعلٍ محذوف يدلُّ عليه قوله: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، والتَّقدير: أرْسَلَ إليكم رسولًا، وإبدالُ الرَّسول مِن الذِّكر في سياقِ الأمْرِ بإقامَةِ حُدودِ الله تَعالى بعامَّة، وحدودِ الطَّلاق وحقوق النِّساء بخاصَّة له دلالاتٌ عِدَّةٌ، أوَّلها: تشريفُ الرَّسول ﷺ وتكريمُهُ بالشَّهادة مِن الله تعالى على أنَّه أفضلُ خَلْقِه، وأكثرهُم ذِكْرًا لربِّه، وأحسنُهم معاملةً لأزواجه في الرِّضا وفي الغضَبِ. والثّانية: أنَّ الذّكر الذي جاء مِن عندِ الله تَعالى سَرى إلى المؤمنين من خلالِ شخصيَّة الرَّسول، حتّى لكأنَّ الذِّكر نفَذَ إليهم مُباشرةً بذاتِه. والثّالثة: كأنَّ شخصيَّةَ الرَّسول صلى الله عليه سولم قد استحالت ذكرًا، فهي بمنزلةِ الصّورة المُجَسِّمة لهذا الذِّكر، وهذا يدلُّ على أنَّ ذِكْرَ الله تعالى كان في خاطِر الرَّسول ﷺ دائمًا في مواجَهَةِ الحَياة، حتّى أصبَحَ ذِكرًا يواجِهُ الحياةَ[2].

شـخـصـيَّـةُ الـرَّسـول ﷺ صورةٌ مُجَسَّمَةٌ لذكر الله

نكتةُ تَنكير ﴿رَّسُولًا﴾:

جيء بـ ﴿رَّسُولًا﴾ نكرةً؛ لِما يدلُّ عليه التَّنكيرُ مِن التَّعظيم

الـرَّسـول ﷺ أحسَنُ النّاس فـي معـاملـةِ النِّساء زواجًـا وعِشْرةً وفراقًا

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 1018، 1019.

(2) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول ﷺ وتوقيره: 163، 164.

والتَّفخيم الذي يتناسَبُ مع الدَّعوة إلى التأسّي بالنَّبيِّ ﷺ والسَّير على منهجِهِ في الخوفِ مِن اللهِ تَعالى والتزام حُدوده، لا سيّما فيما يتعَلَّق بالأُسْرَةِ زواجًا وعِشْرةً وفراقًا.

موقعُ جملةِ: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ﴾ ودلالتُه:

قولُه تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ﴾ جملة في محلِّ نَصْبٍ صفَةٌ لـ﴿رَّسُولًا﴾، وقد عبَّرَ بها النَّظم القرآنيُّ ليوَضّح: كيف كان الرَّسولُ ﷺ ذكرًا للنّاس بعامَّةٍ وللمُؤْمنين بخاصَّةٍ.

دلالة التّعبير بفعل التِّلاوة مضارعًا:

إعلامُ النّاس بما نَزَلَ مِن الوَحْيِ كان الشُّغلَ الشّاغلَ لرسولِ الله ﷺ

في جملة الصِّفة عبَّر النَّظمُ الكريمُ بفعل التِّلاوة - الموضوع للمُتابعة[1] والمُسند إلى ضمير الرَّسول ﷺ - مضارعًا؛ لِما يَدُلُّ عليه مِن تَجَدُّد قيامه ﷺ بتلاوة القرآنِ المُنْزَل إليه، ومتابعة إعلام أتْباعه بالوحي المشتَمِل على أوامرِ اللّه تَعالى وحُدودِه، وعدم كِتْمانِ شيءٍ منه، ما يعني: أنَّ إعلامَهم بِما يَأْتي به القرآنُ من حدودٍ وأحكامٍ، كان الشُّغلَ الشّاغلَ لرسول اللهِ ﷺ، والعملَ الذي لا يفتُر عنه.

نكتةُ تَعدية فِعل التّلاوة بحرفِ الاستعلاءِ:

أحكامُ القرآنِ وحدودُه مِن عند اللهِ سُبحانَهُ، وليست مفتراةً ولا موضوعةً

تعديةُ فعلِ التِّلاوة إلى ضميرِ المُؤْمنين بحرفِ الاستعلاءِ في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ هذا الوحي بما فيهِ مِن حدودٍ وأحكامٍ نازلٌ من عندِ اللهِ تَعالى جلَّ في علاه، وليس مُفْتَرًى ولا موضوعًا من قِبَل الرَّسول ﷺ ولا مِن قِبَلِ غيره، وفيه أيضًا دلالَةٌ على أنَّ الرَّسول ﷺ كان حريصًا على أنْ يقرأ القرآنَ على أتباعه المؤمنين، كما أُنزِلَ عليه - بوساطة جبريلَ عليه السلام - مِنْ لدن ربِّ العالمينَ.

بلاغة تقديم شِبْهِ الجملة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على المفعولِ:

قولُه تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ جارٌّ ومجرور متعلِّقان بفعل التِّلاوة، أوثِرَ

(1) الراغب، مفردات القرآن: (تلى).

كـان الـرَّسـول ﷺ حريصًا على إبـلاغ المؤمنين كـلَّ مـا يـنـزلُ إليهم مِن آياتٍ وأحكامٍ

أحـكـامُ الـقـرآنِ وحـــــدودُه علاماتٌ ظاهرةٌ عَـلى إعـجـازِه الاجتماعيِّ

تَقْديمُهما على المفعول ﴿ءَايَٰتِ﴾؛ للدّلالة على الاختِصاص، الذي يُظْهِرُ عنايةَ الرَّسول ﷺ الكبيرَةَ بأتباعه المؤمنين، وحرصَهُ الشَّديدَ على إبلاغهم وتذكيرهم بكلِّ ما يَنْزِلُ إليهِ من آياتٍ وأحكامٍ وغيرِهما.

لطائِفُ التَّعبير بـ ﴿ءَايَٰتِ﴾ مضافةً إلى الاسمِ الأحسَن ﴿ٱللَّهِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ءَايَٰتِ﴾ مفعولٌ بهِ لفِعْلِ التِّلاوة، وهو جمعٌ مفردُه: آيَة، وهي: العلامَةُ الظّاهرة الثّابتة، وأضيفَت إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ للتَّخصيص، ومَنْحِها مزيدًا من المهابةِ والتَّقديس، والمقصودُ بها: القرآنُ الكريم، وفي التَّعْبيرِ عَنْها بـ ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دون (كتاب اللّه) أو غيره - في سياق سورةِ الطَّلاق - إيماءٌ إلى ما في أحكامِ القُرآن وحُدوده بعامَّة وأحكام الطَّلاق وحدوده بخاصَّة مِن علاماتٍ ظاهرَةٍ على الإعجازِ الاجتماعيِّ للقرآن الكريم، فأحكامُ القرآنِ وحدودُه دائمًا تجمَعُ، ولا تفرِّق، وكذلك أحكامُ الطَّلاق وحدودُه؛ إذْ إنّ الزَّوجين إذا أرادا الفِراق؛ فإنَّهما يُفارقانِ - في ضَوْءِ هذه الأحكام والتَّوجيهات - وفي قلوبِهما بذورٌ للودِّ لم تَمُت، ونداوةٌ قد تُحيي هذه البُذور، فتُنْبِت، فضلًا عَن الخُلُقِ الجميل الرَّفيع الذي يُريد الإسلامُ أن يَصْبِغَ به حياةَ المُجْتَمَع المُسْلِم، ويُشيعُ فيهِ سماتِه وخصائصَه، وهذه الأحكام كذلك لا تَصْطَدِمُ مَع طباع البشر؛ لأنَّ الشّارع الحكيم راعى فيها التَّركيبة البَشَريَّة والطَّبيعة الإنسانيَّة في مُخْتَلف أحوالها، وإنَّ أحكامًا بهذه الكيفيَّة لجديرةٌ بأن تُسَمَّى ﴿ءَايَٰتِ﴾، وبَدَهيٌّ أنَّها لا تكون إلّا من عندِ اللّهِ جَلَّ في علاهُ[1].

موقعُ ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾ الإعرابيُّ ودلالَتُهُ:

لفظ ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ حال من ﴿ءَايَٰتِ﴾، وفي التّعبير به دلالَةٌ على أنَّ الوضوحَ

(1) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول ﷺ وتوقيره، ص: 164.

والبيانَ والظّهور والانكشاف هو الحالُ الثّابتة الدّائمة لِما ينزِلُ مِن آيات القرآن الكريم، والذي يتلوه النَّبيُّ ﷺ بدَوْرِه على النّاس أجمعين، والمعنى: حالَ كَوْنِها مبيِّنات لكُم ما تَحْتاجونَ إليه من الأحكام[1].

التَّوجيه البلاغيُّ للقراءاتِ الواردةِ في ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾:

آيـاتُ الـقـرآنِ واضـحـاتٌ موضِّحاتٌ كلَّ ما يَنزِلُ للنّاس من حدودٍ وأحكامٍ

اختلف القرّاء في ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾، فقرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وأبو بكر وأبو جعفرٍ ويعقوبُ بفتح الياءِ: ﴿مُبَيَّنَٰتٍ﴾، وقرَأ الباقونَ بكسرها: ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾[2]، وقراءةُ الفتحِ تعني: أنَّ اللّه تعالى قد بيَّنها، ووضَّحها، حتّى لا يلتَبِسَ أمرُها على أحدٍ مِن خَلْقِه، قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِۚ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: 118]، وقراءة الكَسْرِ تَعْني: أنَّها واضحة بشِدَّةٍ؛ لدرجة أنَّها تبيِّنُ للنّاس بعامَّة وللمؤمنين بخاصَّة ما نزل إليهم مِنَ الحدود والأحكام، بيانًا واضحًا لا لبسَ فيه بأيِّ حالٍ من الأحوال[3].

معنى اللّام في ﴿لِّيُخْرِجَ﴾:

النّـورُ هـو ثـمرةُ إنـزالِ الـقُـرآن، وإرسـالِ النَّبيِّ العدنان

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَ﴾ متعلِّقةٌ بـ ﴿يَتْلُواْ﴾ أو بـ ﴿أَنزَلَ﴾، وهي حرفٌ يُفيد التَّعليل، فبَعْدَ أن بيَّن النَّظم الكريمُ أنَّ الذِّكْرَ والرَّسول ﷺ صارا بمنزلةِ الشَّيْءِ الواحِدِ، وعُلِم ما في هذه المُراسَلَة مِنَ الشَّرف؛ أتبع ذلك بيانَ شَرَفٍ آخَرَ، فَبَيَّن ثمرة إنزاله إليهم، وهي إخراجُ الذين عَلِمَ اللّهُ تَعالى أنَّهم يؤمنون، أو مَن قدَّر اللّهُ سُبحانَهُ لهم الإيمانَ وعملَ الصّالحات مِن الظُّلمات إلى النّور[4].

غرضُ التّعبير بالاسمِ الموصول وصِلَتِه:

الـتـزامُ حـدودِ الطَّلاق والعملُ بـهـا داخـلٌ في حقيقة الإيمانِ

آثر البيانُ الكريمُ التَّعبير بالاسْم المَوْصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وصلتِه ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ ليُتَوَصَّل بصلته إلى تشريفِ المُخاطَبين،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 264.
(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 248.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 168، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 264.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 168.

وإلى بيانِ ما به يُستَكمل إيمانُهم، ما يعني: أنَّ التزام حدودِ اللهِ تَعالى بعامَّة، والتزامَ حدودِ الطَّلاق التي شرعَها في هذه السّورة بخاصَّة، داخلٌ في حقيقة الإيمان، ومكوِّنٌ أصيل من مُكَوِّناته، ولا ينفَعُ إيمان مِن غير العَمَلِ بها، والامتثال لها، والتَّخلّي عمّا سبَقَها مِن أعرافِ الجاهليَّة وتَقاليدِها.

دلالَةُ التّعبير بفِعْلِ الإيمان ماضيًا، ووجْهُ حذفِ مَعْمولِهِ:

المؤمنونُ حريصونَ على فِعْلِ كلِّ ما يتبيَّنُ لهم أنَّه جزءٌ من الإيمان

عبّر النَّظم الكريم في جملة الصِّلة بفعل الإيمان ماضيًا، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدّلالة على رُسوخِ قَدَمِهم في الإيمانِ وتَغَلْغُلِه في قُلوبِهم، ولبيانِ حِرْصِهم على الامتثالِ لكُلِّ ما يدخُلُ فيه، ويتَبَيَّن لهم أنَّه جزءٌ منهُ، وحُذف معمولُ فِعْلِ الإيمانِ؛ ليَعُمَّ الفعلُ كلَّ ما من شأنِه أن يُؤْمِنوا به، ويدخلُ فيه حدودُ الطَّلاق دخولًا بُرْهانيًّا.

وجهُ تخصيصِ المؤمنين بالذِّكْرِ دون غيرِهم:

إثارةُ المُؤمنين وإلهابُهم إلى امتثالِ أحكامِ الطَّلاق وحدودِهِ

جُعِلت علَّةُ إنزال القرآن وإرسال الرَّسول ﷺ إخراجَ المؤمنين من الظُّلمات إلى النّور، مع أنَّ القرآن والرَّسول ﷺ أُنْزِلا لإخراج النّاس جميعًا من ظلمات الكُفْر والجهالة إلى نور الإيمان والأعمالِ الصّالحة؛ نظرًا إلى خصوص الفريق الذي انتفَعَ بهذا الإرسال؛ اهتمامًا بشأنِه ورفعةً لمقدارِه[1]، وفيه نوعٌ مِن إثارة المؤمنين وإلهابِهم إلى امتثال أحكام اللهِ تَعالى وحدوده، بما فيها أحكامُ الطَّلاق وحدوده.

نكتةُ عَطْفِ العمل على الإيمانِ:

المؤمنونَ يُحيلون الأحكامَ التي تُتْلى عليهم إلى واقعٍ يَعيشونَه

الواو في قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لعطف ما بعدَها على فِعْلِ الإيمانِ، أوثِر عَطْفُهُ بالواو؛ للدَّلالة على أنَّ المخاطَبين لم يَكْتَفوا بالإيمان القلبيِّ بما أُنْزِلَ إليهم وما تُلي عليهم في أحكام الطَّلاق وغيره، وإنَّما بادروا إلى العمل به، وقَسروا أنفُسَهُم عليه، وجعلوه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 338.

واقعًا في حياتهم، حتّى صار دأبًا لهم وعادةً، والمعنى: أقرّوا ببواطِنِهم، وعملوا بجوارِحِهم بالصّالحات من الأعمال؛ تصديقًا لِما قالوه بألسِنَتِهم وتحقيقًا[1]، وعطْفُ الأعمال الصّالحةِ على الإيمانِ من عطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ إذ حقيقةُ الإيمانِ شرعًا: قولٌ وعملٌ واعتقادٌ، فكان في هذا العطْفِ إشادَةٌ بالعمَلِ الصّالحِ لذِكْرِهِ مرَّتين مرَّةً مندَرِجًا تحت اسم الإيمانِ، ومرَّةً على سبيلِ الاستقلالِ.

معنى (أل) في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ونكتة جَمْعِه:

(أل) في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لتعريفِ الجِنْسِ، ما يعني: أنَّ المُؤْمِنين الذين أنْزَلَ اللّهُ تَعالى عليهم الكتابَ، وأرسل إليهم الرَّسول يَعْمَلون كلَّ ما يتحقَّق لَدَيْهِم أنَّه مِن جِنْسِ العمَلِ الصّالح، ولا يُقصِّرون في الإتيان به، ولا يفرِّطون، وجيء به جَمْعًا؛ للدَّلالة على كثرة الصّالحات وتَنَوُّعها، وشمولها أحكامَ الطَّلاق وحدودَه؛ لأنَّها مِن العمَلِ الصّالح الذي يُثاب فاعلُهُ، ويُعاقَبُ مَن يعتو عليه، ويتجاوزه بالحِساب الشَّديد، والعذاب النُّكُر، كما وضَّحت السّورةُ الكريمةُ.

حـدودُ الـطَّـلاق مـن الـعـمـل الـصـالـح الـذي يُعاقَب مَن يَعْتو عليه ويتجاوزُه

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

﴿مِنَ﴾ في قولِهِ تَعالى: ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ هي الابتدائيَّةُ المؤكِّدةُ أنَّ المخاطَبين كانوا يعيشون في ظلمات الضَّلال والجهالة في كلِّ مناحي الحياة، ويدخل فيها ما يتعلَّق بالطَّلاق والزَّواج، وأنَّ القرآنَ الكريمَ والرَّسول ﷺ كانا سبَبين رئيسَيْنِ في إخراجهم منها إلى نور الإيمانِ والهدى، أو كانا سببَيْنِ رئيسَيْنِ في إخْراجِهم وانتشالِهم من الظُّلمات النَّفسانيَّة، والأخلاق الرَّذيلة المُؤَدّية إلى ظُلمة الجوارح بعملها الظّلم وانتشارها في السُّبل الشَّيطانيّة، إلى النّور الرَّوْحانيّ الخالص، الذي لا دنَس فيه؛ بسُلوك صراطِ اللّه تَعالى الذي هو واحدٌ لا شتاتَ فيه، وبيِّنٌ لا لبسَ به[2].

مِـنَ المُـؤَكَّـد أنَّ المُخاطَبين كانوا يَـعـيـشـون في ظُلُماتِ الضَّلال والجَهالَةِ قَبْلَ الإنزال والإرسالِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 168.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 169.

معنى (أل) في ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ و﴿ٱلنُّورَۚ﴾:

(أل) في ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ و﴿ٱلنُّورَۚ﴾ لتعريف العهد؛ إذْ عَبَّر البيانُ القرآنيُّ عن الكفر والضَّلال والإيمان والهُدى بأمرَيْنِ حِسّيَّين مَعْهودَين للمُخاطَبين؛ ليَتَّضح لهُمُ الفرقُ الشّاسعُ بين ما كانوا عليه قبلَ إنزالِ القرآنِ الكريم وإرسالِ الرَّسول ﷺ، وما صاروا إليهِ بَعدَ إرسالِهما.

نكتَةُ جَمْعِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وإفراد ﴿ٱلنُّورَۚ﴾:

الظَّلامُ متعدِّدُ الأنواعِ متشعِّبُ المسالك، أمّا النّورُ؛ فطريقُه واحدٌ

يُلحَظ في الآية أنَّها جَمَعَت ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، وأفردت ﴿ٱلنُّورَۚ﴾؛ جريًا على ما دَرَجَ عليه البيانُ القرآنيُّ مِن جَمْعِ الأوَّل؛ لتعدُّد أنواع الضَّلال، وكثرة طُرُقِه، وتشَعُّب أساليبه، فهناك ظُلْمَةُ الجَهل، وظلمةُ العِناد، وظلمة التَّقليد في الباطلِ، وغيرُ ذلك كثيرٌ، وإفرادِ الثّاني - وهو النّور -؛ لأنَّ طريقَهُ واحدٌ، وهو الإيمانُ باللّه جَلَّ في علاه[1].

نوعُ الاستعارة وأثرُها في ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ و﴿ٱلنُّورَۚ﴾:

كان الطَّلاقُ في الجاهليّة غيرَ محدودٍ بعَدَدٍ، وكان النّاسُ يَظْلِمون النِّساءَ ظلمًا بَيِّنًا

تعبير الآيةِ الكريمةِ عَن الكُفْرِ والجهالَة بـ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، وتعبيرُها عن الإيمانِ بـ ﴿ٱلنُّورَۚ﴾ فيهما استعارتانِ تَصْريحيَّتان؛ شُبِّه فيهما الكفر بالظُّلمات، وشُبِّه الإيمانُ بالنّور، ثُمَّ استُعيرَ المُشَبَّه به للمُشَبَّه، بعد تَناسي التَّشبيهِ وادِّعاءِ أنَّ المُشَبَّه فرد من أفراد المشبَّه به، على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة التي تَدُلُّ على أنَّ شريعةَ الإسلام قد صحَّحت للنّاس كلَّ الأخطاء التي كانوا يَقَعونَ فيها في مَوْضوعِ الطَّلاق وحقوق المرأة؛ إذ كانَ الطَّلاق لا عددَ له، ويُراجِعُ الرَّجل زوجَهُ مَهْما بلغَ عددُ طَلقاتِها، كما كان النّاس يأخذون في ذلك بشرائعَ جائرَةٍ في حقِّ النساء، فنزلت هذه السّورة بإنْصافِهِنَّ في طلاقِهِنَّ وعدَّتهن، وتحذير النّاس من الإصرار على شَرائِعِهم الجائرة في هذا الأمر وفي غيره، وبذلك صانَ الإسلامُ المرأةَ عَن

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 397.

التَّبذُّل، هذا إلى جانبِ رَفْعِ قَدْرِها، وتقرير مالِها مِن حقوقٍ تَعْدِلُ ما عَلَيْها مِن واجباتٍ[1].

بلاغَةُ الطِّباق في الآيةِ:

إظـهـارُ الـفـارق بينَ ما كان عليهِ الـنّـاس قـبـلَ الإرسالِ والإنْزالِ وبـينَ مـا صـاروا إليهِ بَعْدَهُما

في الآيةِ الكريمةِ طباقٌ بين اسمَيْنِ هُما ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ و﴿ٱلنُّورِ﴾، جمَع بينهما النَّظمُ الكريمُ لإظهار الفارقِ بينَ ما كان عليه النّاسُ قبل إنزال القرآنِ وإرسال الرَّسول ﷺ مِن ظُلْمَةِ التَّفكير، وظلمةِ الاعتقاد، وظلمةِ الخُضوع للعادات والأعرافِ الجائرة في حقوق النِّساء وغيرهِنَّ، وما صاروا إليه بعدَ نزول القرآنِ وإرسال الرَّسول ﷺ مِن وضوحٍ وإنصافٍ وعدالةٍ، تُلْزِم الرَّجل بإبقاءِ المرأة في بيتِها أثناءَ عِدَّتها، وتُبَيِّن عددَ الطَّلقات التي يُمْكِنُ مراجعَتُها بعدَها، وتحذِّره من الثّالثة؛ لأنَّه لا رجعة عند وُقوعِها، وتوضّح مدّة العدَّة التي يراجع مطلَّقَتَه فيها، وتَفْرِض عليه الإنفاقَ عليها وعلى أولادِهِ ممّا آتاه اللّه تَعالى، وتحذِّره مِنَ البخل والتَّقتير، وتَعِدُه بسَعَة الرّزق؛ إذا هو أنفقَ، ولَم يَبْخَل، وغير ذلك ممّا ينير الطَّريق للأمّة كلِّها، ويجعلها حارسةً على حدود الطَّلاق، مسؤولةً عن الالتزام بها، وإلّا شَمِلَ العقابُ على العتوِّ عنها كلَّ أفرادِها.

نوعُ الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾؛ لعطف ما بعدَها على ما سبقَها مِن الأمر بالتَّقوى والتَّنويه بالمتَّقين[2]، وقد أوثر العطفُ بها؛ لبَيان جَزائِهم في الآخرة بعد ذِكْرِ جزائهم في الدُّنيا، ويجوزُ أن تكون استئنافيَّةً، والجملة بعدَها مستأنفة بغَرَضِ الإثارة والتَّنبيه على أنَّ جزاء الإيمان والعمل الصّالح ليس في الدُّنيا وحدها، ولكنَّه

(1) عبد المتعال الصعيدي، النظم الفني في القرآن، ص: 318 - 319، وعبد الحافظ البقري، من إعجاز القرآن الكريم في بيانه عن الطلاق، ص: 113 - 114.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 169، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 338.

في الآخرة أيضًا، وأنَّ في الآخرة جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، ورزقًا واسعًا لا مثيلَ له.

موقعُ (مَن) الإعرابيُّ، ووجهُ التَّعبير به:

(مَنْ) في جملة: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ﴾ اسمُ شَرْطٍ في محلِّ رفْعٍ مبتدأٌ، أوثِرَ التَّعبير به لِما فيه مِن الإلهاب والإثارة إلى فِعْلِ الشَّرط والإتيان به، من أجل الفوز والظَّفر بما يترتَّب عليه من الجزاء العظيم، فمجيء الوعدِ على امتِثالهم بالنَّعيم الخالد بصيغة الشَّرط دالٌّ على أنَّه نعيم مقيَّدٌ حصولُه لراغبيه بالإيمانِ وعمل الصّالحات[1].

نعيمُ الآخرةِ مقيَّدٌ حصولُه لراغبيهِ بالإيمانِ وعَمَلِ الصّالحات

دلالة التَّعبير بِفِعْلِ الإيمانِ مضارعًا:

أوثِرَ التَّعبير عن فِعْلِ الشَّرط بصيغة المضارع، فقيل: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ﴾؛ لدلالته على تجدُّد إيمانه بما يتجدَّد نزولهُ مِن الوحي إلى رسولِ الله ﷺ وتسليمه بما فيه مِن حدودٍ وأحكام؛ تسليمًا لا يقبَلُ التَّردُّد أو التَّزَعْزُعَ، ويجوزُ أن يكون المعنى: يتجدَّد في كلِّ وقتٍ على الدّوام إيمانهُ بالملِك الأعلى؛ بألّا يزالَ في تَرَقٍّ في معارج معارفِه[2].

المؤمنُ يتجدَّدُ إيمانُه بالمَلِكِ الأعلى، ويترقّى باستِمرارٍ في معارِجِ معارِفِه

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾:

الباءُ في قولِه: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ﴾ حرف جرٍّ يفيد الإلصاقَ أو السَّببيَّة، وفي إدخالِه على الاسم الأحسَن (الله) دلالةٌ على أنَّ الإيمانَ المُفْضيَ إلى الجزاءِ المَذْكورِ في جواب الشَّرط هو الإيمانُ بكلِّ ما كان مِن عندِ اللهِ تَعالى، سواءٌ أنْزَلَهُ اللهُ تَعالى في كِتابِه، أو أمَر به على لسانِ رسوله ﷺ، وسواءٌ أكان في أمْرِ الطَّلاق أم في غيره من الأمور والأحوال.

الإيمانُ المُفضي إلى الجنَّة هو الإيمانُ بكلّ ما كان مِن عند الله تَعالى، سواءٌ أكان ذلك في الطَّلاق أم في غيرِه

نوع الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾:

الواو في جملة: ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ لعطف ما بعدَها على قوله:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 338.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 170.

﴿يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ﴾، وأوثر عطفه بالواو؛ للدّلالة على أنَّ الجزاء المذكور لا يكون إلّا لِمَن يقرنون الإيمان بعمل الصّالحات، ولمن يُحيلون ما نزَلَ إليهم مِن ذِكرٍ، وما تلاه عليهم الرَّسولُ ﷺ من حدودٍ وأحكامٍ إلى واقعٍ عمليٍّ، يَحيَون به، ويجعلونه عاداتٍ يتمَسَّكون بها، ويرفضون التَّخَلّيَ عنها؛ تقديسًا لها، وإيمانًا باللهِ تَعالى الذي أنزلها، وتقديرًا للرَّسول ﷺ الذي تلاها.

الجنَّة لا تكون إلّا لِمَن يَقْرِنون الإيمانَ بعمل الصّالحات

بلاغَةُ التَّعبير بفِعْلِ (العَمَلِ) مضارعًا:

أوثر التَّعبير بفعل العمَلِ مُضارِعًا، فقال تعالى: ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾؛ لِما يمتاز به المضارع مِن الدَّلالة على تجدُّد قيام المؤمن بالأعمال الصّالحة، وعدم توقُّفه عنها، أو تردُّده في القيام بها، ولِما يُفيده كذلك مِن استحضار الصّورة المُتَحَدَّث عنها، كأنَّها حاضرة ماثِلَةٌ، يَبْدو فيها المؤمنُ الرّاغبُ في الفوز بالجنَّة، والرّزق الوفير الذي لا مثيل له، وهو ينتقل من صالحٍ إلى صالحٍ، ويتحوَّل من طاعةٍ إلى طاعة، غير مانٍّ ولا مستكثرٍ.

المؤمن ينتَقِلُ مِن طاعةٍ إلى أُخرى، ومِن عمَلٍ صالح إلى آخَرَ، غيرَ مانٍّ ولا مُسْتَكْثِرٍ

موقعُ ﴿صَٰلِحًا﴾ الإعرابيُّ، وسِرُّ تنكيره:

قولُه تعالى: ﴿صَٰلِحًا﴾ صفةٌ لموصوف محذوفٍ دلَّ عليه الفعل (يَعْمَلْ)، والمعنى: يعمل عملًا صالحًا[1]، وأوثر التَّعبير بالصِّفة دون ذِكْرِ المَوْصوفِ قبلَها؛ للإشارةِ إلى أنّ المعوَّل عليه في قبولِ الأعمال، والمجازاة عليها بالجنَّة في الآخرة، هو صلاحُها وخلوصُها لوجهِ اللّه جلَّ في علاه، وأنَّ الإخلاصَ والصَّلاح يجبُ أن يكون هدفَ المؤمن الرّاغب في ثوابِ الآخرة ونعيمِها، فلا يَسْعى أبدًا إلى عمَلٍ غيرِ صالحٍ، وأوثِرَ تنكيرُ الصِّفة لِما يُفيدُهُ التَّنكير في سياق الشَّرط - كإفادَتِهِ إيّاه في سياقِ النَّفي - من العموم والشُّمول الدّالّ على قيام

صلاحُ الأعمال وخلوصُها لله تَعالى هو المعوَّل عليه في قَبولِها والمجازاةِ الحسَنَةِ عليها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 338.

المؤمن بكُلِّ الأعمال الصّالحة، والمعنى: ويعمل جميعَ الصّالحات، أي: المأمور بها أمرًا جازمًا، بقرينة استقراءِ أدلَّة الشَّريعة[1].

نكتةُ العدولِ عن الجَمْعِ إلى الإفراد في ﴿صَٰلِحًا﴾:

كلُّ عملٍ صالحٍ له وزنُه وقيمتُه وأثرُه في دخول المؤمنِ جنَّةَ النَّعيمِ في الآخرة

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن مفعولِ (يَعْمَلْ) بصيغة المفرد، فقال: ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾، ولم يقل: (الصالحات)، كما قال مِن قبلُ في جملة: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لِما يُفيده تنكيرهُ مِن التَّكثير، ولِما يُفيدُهُ إفرادُه مِن الإشارة إلى أنَّ كلَّ عمَلٍ صالح له وزنُه وقيمتُه وأثرُه في دخول الجنَّة، ما يعني أنَّه أحدُ الأسباب المُفْضية إلى الفوز بالنَّعيم الذي أعدَّه اللّٰه تعالى للمؤمنين في الآخرة، ما يترتَّب عليه ألّا يَستَقِلَّ مؤمنٌ عملًا، وألّا يعْتوَ عن حدٍّ مِن حدود اللّٰه سُبحانَهُ؛ لأنَّ التزامَه بهذا الحدِّ قد يكون السَّببَ المُفضي به إلى جنَّةِ الخلود، والرِّزقِ الذي ليس له حُدودٌ.

دلالَةُ التَّعبير بالفِعْلِ ﴿يُدْخِلْهُ﴾ مضارعًا مسندًا:

اللّٰه تعالى سيتولّى مجازاة المُؤْمِن الذي يعمَلُ الصّالحات بِنَفْسِهِ

أوثر التَّعبيرُ عن فعل الإدخال بصيغةِ المُضارع؛ لأنَّه سيَحْصُلُ في الآخرة، وأُسْنِدَ إلى الضَّمير المستتر في ﴿يُدْخِلْهُ﴾ العائدِ إلى اللّٰه سُبحانَهُ؛ تشريفًا للمؤمن وإعلاءً لقَدْرِه؛ لِما فيه مِن دلالةٍ على أنَّ اللّٰهَ سُبْحانَهُ سيَتَولّى جزاءَهُ على الإيمانِ وعمَلِه الصّالحات بنَفْسِه. وعبَّر عن المفعول (المؤمن) بالضَّمير؛ جريًا على الأصلِ في التَّعبير عن الاسم الذي سبق ذِكْرُهُ قريبًا بالضَّمير، ولِما يُفيده التَّعبيرُ به من تعيين المُتَحَدَّث عنه تعيينًا يحولُ دونَ صَرْفِ الحَديثِ عنهُ إلى أحدٍ آخَرَ.

المؤمنُ الذي يَعْمَلُ الصّالحات يَتَنوَّع نعيمُه بما يُكافِئُ ما جاءَ به مِن إيمانٍ وعملٍ

نكتَةُ تَنْكيرِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وجَمْعِها:

قولُه: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ مفعول به ثانٍ لفعل الإدخال، وأوثر تنكيرُه لتَعْظيمِ الثَّواب وتفخيمه، وليَتَسَنّى وصفُه بجملة: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 338.

﴿ٱلْأَنْهَرُ﴾، والتي تُبْرِز جانبًا من جوانب النَّعيم المُشَوِّق إلى إتيان فِعْلَي الشَّرط وامتثالهما، وجُمِعَ؛ ليَدُلَّ على كثرة الجنان، وتنوُّع نعيمها وتعدُّده، بما يكافئُ ما جاء به المؤمنُ من إيمانٍ وعملٍ صالحٍ، ويوازيه.

دلالةُ التَّعبير بفعل الجَريانِ مُضارِعًا:

قولُه تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَرُ﴾ جملة في محلِّ نصبٍ صفةٌ لـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾، أوثِرَ التَّعبير فيها عَن فِعْلِ الجَريانِ بصيغَةِ المُضارِعِ، فقيل: ﴿تَجْرِى﴾؛ لِما يَدُلُّ عليه مِن تجدُّد جريان الماء، واستمرار تدفُّقه في الأنهار، ما يُضْفي على الجِنانِ مَزيدًا مِن النَّعيم والجمال؛ لأنَّ أحسن الماء ما كان جاريًا غير قارٍّ؛ إذ يكون بذلك جديدًا؛ كلَّما اغترف منه شاربٌ، أو اغتسل منه مغتسلٌ[1]، فضلًا عمّا يمتازُ به التَّعبير بالمضارع من استحضارِ صورة الماء، وهو يَجْري في الأنهار كأنَّها ماثلةٌ حاضرةٌ، تدفَعُ المُخاطَبين إلى فعلِ ما يُفضي إلى التَّنعُّم بهذا الماء الجاري مِن غيرِ تردُّد أو استثقالٍ.

استحضارُ الصّورة يَدفَعُ المُتَلَقّي إلى فِعْلِ ما يُفضي إلى التَّنعُّم بالماء الجاري

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

﴿مِن﴾ في جملة: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَرُ﴾ لابتداءِ الغاية[2]، فابتداءُ جريها كائنٌ من تَحْتِ أشجار الجنّات وأصولِها، وأوصافُ الجنَّة على خلافِ المشاهَدِ مِن أحوال الدُّنيا[3].

نكتةُ تقييدِ الجَريانِ بالتَّحتيَّة:

قُيِّدَ جريانُ الماءِ مِن تحت الجنّات مع أنَّ الأنهارَ كذلك؛ إذْ لا تجري مِن فوقُ؛ وذلك أنَّ هذا القيدَ كاشفٌ قُصِدَ منه زيادةُ إحضارِ حالِ جَرْيِ الأنهارِ، ففيه تصويرُ الحالِ للسّامع[4]، والمعنى: أنَّ أنهار

أرضُ الجنَّة فيها عيونٌ تتفجَّر أنهارًا في أيِّ مكانٍ يُريدُه المؤمِن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 354.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/ 182.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 2/ 357.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 355.

الماءِ تتخلَّلها، حتّى كأنَّها تحتها، أو أنَّ الماء تحتها فعلًا؛ بأن تكون أرضُها عيونًا نابعة، أيُّ موضعٍ أراد منهُ المؤمنُ إجراءَ نهرٍ جَرى[1].

غَرض تقديمِ شِبْهِ الجُمْلَة ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ على الفاعل:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ على ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ تأكيدًا لمعنى جريان الماء ووجودِه فيها، وإبرازًا لصورَتِه وأثَرِهِ الرَّئيس في نعيم الجنان، وكمال الاستمتاع بها، فالتَّقديمُ لبيانِ بهاء هذه الصّورة، ولفْتِ الأنظار إلى قيدٍ معروفٍ؛ ليُتَفَكَّر في سِرِّ إيرادِه.

الماء سببٌ رئيسٌ في كمال الاستمتاعِ بالجِنان

فائدةُ جمع ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وتعريفها:

جيء بالمسند إليه ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جمعًا لإرادَةِ التَّكثير، وعُرِّف باللّام المفيدةِ الجنسَ، فيكون في قوَّة النَّكرةِ، والمعنى: تجري من تحتِها أنهارٌ.

ويَحْتَمِلُ أن تكون اللّامُ لِلعَهْدِ التَّقديريِّ؛ وذلك أنَّه لَمّا ذُكرتِ الجنّاتُ؛ استَحْضَرَ السّامعُ لوازمَها ومقارناتِها.

ويَحْتَمِل أن تكون لِلعَهْدِ الخارجيِّ، ويكون المعهودُ هو المذكورَ في قول الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: 15].

ولَم تُضَفِ الأنهارُ إلى ضمير الجنّاتِ بأنْ يقال: (تَجْري مِن تحتِها أنهارُها)؛ لِلإيماءِ إلى أنَّ التَّنعُّمَ بالأنهارِ تنعُّمٌ مستقلٌّ، وليس ذلك تنعُّمًا تابعًا لِلجَنّاتِ.

نوعُ المجاز وبلاغتُهُ في جملةِ الصِّفة:

في إسناد الفِعْلِ ﴿تَجْرِى﴾ إلى ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ مجاز عقليٌّ، علاقتُهُ المكانيَّة؛ إذْ مِنَ المعلوم أنَّ النَّهر - وهو الشَّقُّ في الأرض - لا يجري، إنَّما الجاري ماؤُه، وفيه نوع مِنَ التَّصوير الذي يرينا سرعةَ المياه

كأنَّ الأنهار هي التي تَجْري مِن شِدَّة اندِفاعِ الماءِ وسُرْعَة تدَفُّقه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 170.

في جريانها، حتّى ليُخيَّل إلينا أنَّ الأنهارَ هي التي تجري، ولو قيل: (تجري من تحتها المياه)؛ لَما كشَفَت هذه الحقيقةُ عَن امتلاءِ الأنهار بالماء وسرعة جَريانِه فيها، ولكان أقصى ما يُفهَم منها مجرَّدُ وصف الماء بالجريان.

الموقعُ الإعرابيُّ لـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، ودلالةُ جَمْعِهِ:

قولُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حالٌ مِن ضميرِ المَفْعولِ في ﴿يُدۡخِلۡهُ﴾، وجيء به جَمْعًا؛ مراعاةً لمعنى اسْمِ الشَّرط (مَنْ) بعد أن روعيَ لفظُه في ضمائر فِعْلِ الإيمان، وفعلِ العمَلِ، وفعل الإدخال، وللدّلالة على أنَّ المؤمن الذي يعمل الصّالحات، ويلتزم حدودَ اللّه تَعالى في الطَّلاق وفي غيره يُنَعَّم بنَوعَيْنِ مِن النَّعيم، أحدهما: حسّيٌّ، وهو الخلود في الجنَّة، والتَّمتُّع بنعيمها على وجهِ التَّأبيد. والآخرُ: نَفْسيٌّ، وهو الأُنْسُ بالأصحاب والإخوان من المؤمنين؛ لأن منادمةَ الإخوان من أعلى نعيمِ الجِنان[1].

ساكِنُ الجنَّة يتمتَّع بالنَّعيم الحِسّيِّ، والنَّعيم النَّفْسيِّ

فائدة التَّعبير بـ ﴿أَبَدًا﴾:

لم يكتفِ النَّظمُ الكريم بما يُفيدُ الخُلود، فعبّر بقوله: ﴿أَبَدًا﴾؛ لتأكيد أنَّ هذا الخلود لا يتخلَّله انقطاعٌ لهذا النَّعيم، وليس له نهايةٌ، وفيه نوعٌ من التَّطمين الباعِث إلى زيادة التَّرغيب في إتيانِ الشَّرط المُفْضي إلى هذا النَّعيم الذي لا يَنْقَطِعُ، ولا يَنْتَهي.

نعيمُ الجنَّة لا يتوقَّف، ولا ينتهي

موقِعُ جُمْلَةِ: ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ وفائِدَتُها:

قولُه تعالى: ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ جملةٌ في محلِّ نصبٍ حالٌ ثانيَةٌ مِن الضَّمير المنصوب في ﴿يُدۡخِلۡهُ﴾، جيء بها لإفادة معنى التَّعجُّب والتَّعظيم؛ لِما يُرْزَقُهُ المُؤْمِن من الثَّواب في الجنَّة[2] جزاءَ إيمانِه وعمله الصّالح وامتثاله حدودَ اللّهِ تَعالى في كلِّ أموره.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 214.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 486.

نكتةُ التَّوكيدِ بـ ﴿قَدْ﴾:

رزقُ الجنَّة مؤكَّد الحصولِ مِن غير شَكٍّ أو رَيْبٍ

﴿قَدْ﴾ حرفُ تحقيقٍ، عُبِّر به لتأكيدِ حُسْنِ ما يُرْزَقُه المؤمنُ في الجنَّة، مِن رزقٍ وافرٍ متنوِّع؛ تأكيدًا يَنْفي الشَّكَّ، كما ينفي أنْ يكونَ لهذا الرِّزق مثيلٌ أو شبيهٌ.

دلالةُ التَّعبير بفعل الحُسْن مادَّةً وصيغةً:

رزقُ الجنَّة لا مثيلَ له، ولا شبيهَ به

أوثرَ التَّعبير بفعل الحُسْنِ المُسْنَدِ إلى الاسم الأحسَن ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ﴾؛ للدّلالة على أنَّه لا أحسن ولا أفضل ولا ألذَّ ولا أعظمَ ممّا يُرْزَقُهُ المؤمن في الجنَّة من الثَّواب، وسائر المطاعم والمشارب، وكلِّ ما لذَّ، وطاب ممّا تَقَرُّ به الأعين، وتطمئِنُّ إليه النُّفوس[1]، وأوثر التَّعبير به ماضيًا مع أنَّه سيحصُلُ في الآخرة تَشْبيهًا للمُستَقْبَل بالماضي في تأكُّد الوقوع، وتحقُّق الحصولِ.

نكتةُ إظْهارِ الاسم الأحسَن ﴿ٱللَّهُ﴾:

تشريفُ المؤْمن، وتعظيمُ ما أنعَمَ اللهُ بِهِ عليهِ مِن الرِّزق

كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (قد أحسنَ له رزقًا)؛ جريًا على ما سبق من التَّعبير عن فاعل الإدخالِ بالضَّمير في قوله: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾، لكنَّ النَّظم الكريم عدَلَ عن الإضمارِ إلى إظهار الاسْم الجليلِ، فقال: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ﴾؛ لتشريف المُؤْمِن، وتعظيم ما أنعم اللّهُ به عليه مِن الرِّزق جزاء عَمَلِه؛ لِما هو معروفٌ مِن أنَّ العطيَّة تكون على قدر المُعْطي، والمعنى: قد أحسَنَ المَلِكُ الأعلى ذو الجلالِ والإكرام[2].

معنى اللّام في ﴿لَهُۥ﴾، ووجه تقديم شبه الجملة:

التَّعجيل بالبُشْرى يدفَعُ إلى المُداومة على ما كان سببًا فيها

قوله: ﴿لَهُۥ﴾ جارٌّ ومجرور متعلِّقان بفعل الإحسان، واللّام فيه حرف يفيد اختصاصَ المؤمنِ - الذي يلتزم حدودَ الله تَعالى في الطَّلاق وغيره - بالرِّزق الذي لا رزقَ أحسَنُ منه في الآخرة، وأوثر تقديمُ الجارِّ والمجرور تعجيلًا للبُشْرى، وإسراعًا بإدخال السُّرور

(1) مجمع البحوث الإسلامية، التفسير الوسيط: 10/ 1475.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 171.

على نفسِه في الدُّنيا، ما مِن شأنه أن يَدْفَعَ إلى المُداومَةِ على ما كان سبَبًا في ذلكَ.

نكتةُ تَنْكيرِ ﴿رِزْقًا﴾:

قولُه: ﴿رِزْقًا﴾ مفعولٌ به لفعل الإحسان، وقد جيء به نكرةً مختومًا بألف المدِّ؛ ليدلّ بمعناه ومبناهُ على أنَّه لا حدود لعظمة الرِّزق الذي سيُرْزَقُه المؤمنُ في الجنَّة؛ إذ المعنى: قد وسَّع الله تعالى لهذا المؤمن الصّادق في إيمانِه رزقَهُ في الجنَّة، وأعطاه من الخير والنَّعيم، ما يَشْرَحُ صدرَه، ويُدخل السُّرور على نفسِه، ويُصلح باله[1].

لا حدودَ لعظَمَةِ الرِّزق الذي سَيُرْزَقُهُ المؤمن في الجنَّة

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العمَل والفِعْل والصُّنع والكسْب:

العملُ: إيجادُ الأثَر في الشَّيء، يُقال: فلان يَعْمَلُ الطّين خزفًا، ويعمل الخوصَ زِنْبيلًا والأديمَ سِقاء، ولا يُقال: يفعَلُ ذلك؛ لأنَّ فِعْلَ الشَّيء عبارة عمَّا وُجِد في حالٍ كان قبلها مقدورًا، سواءٌ أكان عن سبَبٍ أم لا[2]، والصُّنعُ: ترتيبُ العمَلِ وإحْكامُه على ما تقدَّم علمٌ به، وبما يوصِل إلى المراد منه[3]، أمّا الكسبُ؛ فهو الفعل العائدُ على فاعله بنَفْعٍ أو ضُرٍّ، وقيل: ما وقع بمِراسٍ وعلاج، أو ما فُعِل بجارحَة[4]، ولمّا كان التَّعبير واردًا في سياق الحديثِ عمّا يترتَّبُ عليه دخولُ الجنَّة، والتَّمتُّعُ برزقها الوافر ونعيمها الذي لا يُضاهَى؛ ناسب التَّعبير بمفردة (العمل)، فقال تعالى: ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾؛ لدلالتِه على أنَّهم يُطَوِّعون أفعالَهم وصنائعَهم وكسبَهم، ويجعلونها طاعةً خالصةً لله تعالى؛ كي تكون سببًا في دخولِهم جنَّةَ الخلود، وتمتُّعِهم فيها بالرِّزقِ غيرِ المحدود.

المؤمنون يَجْعَلون أفعالَهم وصنائعَهم وكَسْبَهم طاعاتٍ تُؤَهِّلُهُم لجنَّة الخلود

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 461.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 134.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 135.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 137.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والستون،
سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 62 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-640-02-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 62 : المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-640-02-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5378070 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"